حسن البنـــا

الرجل القرآنى

للأستاذ أنور الجندى

« أشهد أنى لم أغير شيئا من « روح » كتابات « روبيرجاكون » — الكاتب الأمريكى الذى التقى بالمغفور له الأستاذ حسن البنا سنة ١٩٤٠ واجتمع به طويلا — ولكنى أخذت (معالم) كتاباته وملاحظاته وخطوط بحثه ، كما أرسلها إلى صديق يطلب العلم فى (واشنطون) ، وأضفيت عليها من الأسلوب الأدبى ما يجعلها قريبة من مستوى (الرسالة) » ا . ج »

لم أكن أظن أن الوقت قد حان بعد للكتابة عن رجل هز تاريخ مصر والشرق الحديث هزة قوية ، تركت فيه آثارا حية لا يمكن إنكارها أو تجاهلها أو الغض من قدرها ، هى تلاميذه وحواريوه الذين لا يزالون على درجة من القوة والفاعلية

كنت أظن أن أمر هذا الرجل سيظل إلى وقت ما مبهما ، يراه بعض الناس قديسا من القديسين ، ويراه غيرهم طاغية من الطغاة ؛ ولكن الحوادث فى مصر قد أسرعت فأعادت إلى « الإخوان » مظهرهم الذى تجلى فى صورة من القوة ، أعادت إلى الأذهان أثرهم المعروف فى توجيه الحياة السياسية والاجتماعية فى مصر

وقد اختلف الناس فى أمر كل «عظيم» وعبقرى ونابغة ، ولم يجتمعوا على رأى فيه مادام حيا ، ولكن الموت يحسم الأمر دائما ، ويصرف عن صدور الناس أوهامها وبردها إلى شئ من الحق ، فتحكم متجردة من الهوى

وكان ضروريا أن يختلف الناس فى هذا الرجل ، وكان حتما أن تفيض بعض النفوس بضروب من الحقد والحسد نحو رجل استطاع أن يجمع حوله الناس ، وأن يؤلف بين طائفة ضخمة من الأتباع ، بسحر حديثه ، وجمال منطقه ، وروعة بيانه ، فتنصرف هذه المجموعة الضخمة من حول الأحزاب ، والجماعات ، والفرق الصوفية ، وتنضوى تحت لوائه ، وتطمئن له وتثق به

كان هذا مثار حسد الناس ، ومثار حقد بعض ذوى الرأى ، وكان خليقا بهم أن ينقموا وأن يحسدوا هذا الرجل المتجرد ، الفقير ، على أنه استطاع أن يجمع الناس إليه بوسائل غاية فى البساطة واليسر ، وهى لباقته وحسن حديثه .. فيرفعهم فوق المطامع المادية ، التى يجتمع عليها الناس عادة

وكان طبيعيا أن يتنكر له بعض الناس ، وأن ينبذوا عنه بعض الرجفات ، فليس أشد وقعا فى نفوسهم من أن يسلبهم أحد سلطانا كان لهم . وليس أبعد أثرا فى نفوسهم أن يجىء رجل من صميم الشعب ليجمع الناس حوله باسم القرآن ، ويقول لهم إن الله قد سوى بين الناس بالحق ، وجعل فضيلتهم عنده على أساس العمل والتقوى

خيل إلى بعد أن انطوت حياة الرجل على هذه الصورة العجيبة ، وثار حولها ذلك الغبار الكثيف ، أن وقتا طويلا يجب أن يمر قبل أن يقول التاريخ الحق كلمته ، ويروى المؤرخ النزيه قصته

غير أن الظروف السياسية فى مصر سرعان ما تغيرت ، وأمكن أن يكشف التحقيق فى بعض القضايا بطلان كثير مما وسمت به دعوة الإخوان من ادعاءات ، وأن يبرأ جانب هذا الرجل بالذات فيبدو نقيا طاهرا

وكنت قد التقيت بالرجل فى القاهرة سنة ١٩٤٦ ، ثم عدت إلى القاهرة مرة أخرى سنة ١٩٤٩ بعد أن قضى ، وحاولت أن أتصل ببعض الدوائر التى تعرفه فسمعت الكثير مما صدق نظرتى الأولى إليه

فقد علمت أنه كان فى أيامه الأخيرة يحس بالموت ، وكان الكثير من محبيه ينصحه بالهجرة أو الفرار ، أو الالتجاء بثقة أو خفية ؛ فكان يبتسم للذين يقصون عليه هذه القصة وينشد لهم شعرا قديما :

أى يومى من الموت أفر يوم لا قدر أم يوم قدر
يوم لا قدر لا أرهبه ومن المقدور لا ينجو الحذر

وكان لا يدع لحظة من محاولة استخلاص أنصاره من الأسر، وكان يبالغ به الأمر مبلغه، فيستيقظ فى الليل، ويضع كلتا يديه على أذنيه، ويقول: إنى أسمع صياح الأطفال الذين غاب آباؤهم فى المعتقلات

***

إن تاريخ جهاد «الرجل القرآنى» طويل.. ولكن أخصب سنواته أيام الحرب.. منذ أن خرج من المعتقل عام ١٩٣٩، فى هذا الوقت الذى شغلت الحرب الدنيا جميعها، عن الأحزاب، وعن السياسة، وعن كل شئ، كان الرجل لا ينام، كان يسعى ويطوف ويذهب إلى كل قرية وكل نجع وكل دسكرة يفتش عن الشباب، ويحدث الشيوخ، ويتصل بالعظماء والعلماء، ويومها بهر الوزراء، وأعلن بعضهم الانضمام إلى لوائه الخفاق، وجيشه الجرار

وحاول الإنجليز أن يقدموا عروضا سخية.. فرفضها الرجل فى إباء. وتامت الأحزاب فى انتظار الهدنة، وظل الرجل الحديدى الأعصاب يعمل أكثر من عشرين ساعة لا يتعب ولا يجهد، كأنما صيغت أعصابه من فولاذ

لقد كان يحب فكرته حبا يفوق الوصف، ولم يكن فى صدره شئ يزحم هذه الدعوة. كان يعشق فكرته كأنما هى حسناء! لا يجهده السهر، ولا يتعبه السفر، وقد أوتى ذلك العقل العجيب، الذى يصرف الأمور فى يسر، ويقضى فى المشاكل بسرعة، ويفضها فى بساطة، ويذهب عنها التعقيد

كان لا يحتاج إلى الإسهاب ليفهم أى أمر، كأنما لديه أطراف كل أمر، فما أن تلقى إليه أوائل الكلمات حتى يفهم ما تريد، بل أحيانا كان يجهر بما تريد أن تقول له، ويلقى لك فيما تريد أن تسأل عنه

كان نفاذ البصيرة، نقادها، يرى ما وراء الأشياح، فيه من ذلك السر الإلهى الصادق قبس

كان يتهم كل شئ، لا تجد عنده علما ولا فكرا ولا نظرية جديدة فى القانون، أو الاجتماع أو السياسة أو الأدب، لم يقرأها ولم يلم بها، ولم يحاول أن يفيد منها لدعوته وفكرته

ولم تكن هناك دعوة ولا نزعة ولا رسالة، مما عرف العالم فى الشرق أو فى الغرب، فى القديم أو فى الحديث.. لم يبحثها أو يقرأها أو يدرس أبطالها، وحظوظهم من النجاح أو الفشل، أو يحمل منها ما يصلح لتجاربه وأعماله

كان يقول كل شئ، ولا تحس أنه جرح أو أساء.. وكان يوجه النقد فى ثوب الرواية أو المثل، وكان يضع الخطوط ويترك لأتباعه التفاصيل

كان قديراً على أن يحدث كلا بلغته وفى ميدانه وعلى طريقته، وفى حدود هواه، وعلى الوتر الذى يحس به، وعلى «الجرح» الذى يثيره

ويعرف لغات الأزهريين والجامعيين والأطباء والمهندسين والصوفية وأهل السنة، ويعرف لهجات الأقاليم فى الدلتا وفى الصحراء وفى مصر الوسطى والعليا، وتقاليدها، بل إنه يعرف لهجات الجزارين والفتوات، وأهالى بعض أحياء القاهرة الذين تتمثل فيهم صفات معينة بارزة، وكان فى أحاديثه إليهم يروى لهم من القصص ما يتفق مع ذوقهم وفهمهم

بل كان يعرف لغة اللصوص وقاطعى الطرق والقتلة، وقد ألقى إليهم مرة حديثا

وهو يستمد موضوع حديثه — أثناء سياحاته فى الأقاليم وفى كل بلد — من مشاكلها ووقائعها وخلافاتها، ويربطه فى لباقة مع دعوته ومعالمها الكبرى، فيجئ كلامه عجبا.. يأخذ بالألباب

كان يقول للفلاحين فى الريف «عندنا زرعتان.. إحداهما سريعة النماء كالقثاء، والأخرى طويلة كالقطن»

لم يعتمد يوما على الخطابة، ولا تهويشها ولا إثارة العواطف على طريقة الصياح والهياج.. ولكنه يعتمد على الحقائق،